مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2020
ص: 243 - 259 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

انزياحات الذات وتجاوز الهوية في رواية "المَمنُوعة" لمَليكة مقدم. دراسة موضوعاتية.

Self-shifting And Identity Transcendence in the Novel “Forbidden” by Malika Mokeddem. Thematic study.

[*] ط.د.**حمزة بوزيدي**[1] د.**عقيلة بالي محجوبي**[2]

Bouzidi hemza akila bali mahdjoubi

[1 – 2] جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 مخبر السرديات والأنساق الثقافية (الجزائر).

University of Setif- Algeria

Hamzabouzidi222@gmail.com:

تاريخ الإرسال: 2019/12/01	تاريخ القبول: 2020/01/20	تاريخ النشر: 2020/03/15

مُلخص البحث

تَضْطر الذوات –تحت ضغط ما– للتنازل عن فضائها الثقافي والبحث عن مجال انتمائي بديل قادر على احتواء تجاربها الوُجودية المعقدة، وفي غمرة هذه المجازفة قد تتعرض لانزياحات تمس صميم هُويتها الداخلية والخارجية، ضمن سياقات ثقافية واجتماعية مُتضاربة، تدفعها إلى إقامة مشروع هجرة تملصا من الاحتكار الثقافي المفروض عليها، تبتغي على إثره تجاوز الممكن واستهداف المأمُول واصْطناع هُوية مثالية ذات أبعاد تَشاركية عالمية. من هنا تكون الغاية الأساسية لهذا المقال، مُنْصَبَّةً حول الكشف عن تمظهرات هذه الإنزياحات الوجودية على مستوى الهوية وآليات تجاوزها، عبر تَقصِّي المسَارات المضطربة لأهم شُخوص رواية " الممنوعة " لمليكة مقدم، والوقوف على تداعياتها وآثارها النفسية والثقافية الوخيمة على هذه الذوات.

الكلمات المفتاحية: ذوات؛ احتكار ثقافي؛ مليكة مقدم؛ الممنوعة.

Abstract:

Under pressure, selves are forced to relinquish their cultural space and search for an alternative area of development capable of containing their complex existential experiences. In the midst of this risk, they may be exposed to internal and external identity shifts within conflicting cultural and social contexts, leading them to establish an immigration project to evade cultural monopoly. As a result, it seeks to transcend the potential, target the aspirations and create an ideal identity of global participatory dimensions.

[*] حمزة بوزيدي. Hamzabouzidi222@gmail.com

Hence, the main purpose of this article is to reveal the manifestations of these identity shifts and the mechanisms of overcoming them, by investigating the troubled existential paths of the most important characters of the novel "Forbidden" by Malika Mokeddem, and to identify its repercussions and its severe psychological and cultural effects on these subjects.

Keywords: selves; Cultural Monopoly; Malika mokedddem; Forbidden.

تمهيد:

جُبِل الإنسان على منذ فجر التاريخ على فِطرة التمركز والثبات، ما يفترض بالضرورة تشكيل علاقة ارتباط متينة مع الفضاء، يسعى من خلالها إلى تحقيق ذاته، واستثمار مواهبه الخلاقة، غير أنه لا يملك الحرية المطلقة في ذلك، كونهُ يتحرك في مساحة مُؤطرة ثقافيا من طرف الجماعة، بما تحمله من تراث ومعتقدات وأفكار قد لا تتناسب مع ما تستهدفه ذات الإنسان الفردية، فيلجأ إلى الصراع أو الرحيل في حال عدم توازن القوى، ويظل على إثر ذلك يجوبُ البلد تلو الآخر لاستعادة التمركز والثبات، وهَيهَات يَفعلُ، ولذلك ورد في الحديث النبوي، أن "السفر قطعة من العذاب"، وأي عذاب يَصيرُ هذا السفر إذا كان هُروبا، وأي هُروب إذا كان من الأصل؟ ثم ما مصير تارك الوطن إذا لم تكن له وِجهة يُوَلِّيهَا ؟، فَثَمَّ هلاكهُ المحقَّق.

في رواية " الممنوعة " للروائية الجزائرية مليكة مقدم تمثيل لهذا الإنسان المفكك الهوية، الراغب في إعادة تركيب شتات الذات المتناثرة في تضاعيف اللامكان، ممثلا في شخصية " سلطانة مجاهد " المنقسمة بين وطنها الجزائر وغربتها في مدينة " مونبولييه " الفرنسية، وهو ما دفعنا إلى مُحاولة الإجابة عن الأسئلة التالية: ما هي أبرز المراحل الوجودية التي قطعتها هذه الذات الممزقة في سبيل العثور على هوية عالمية تشاركية؟. ما هي مظاهر وتجليات كل مرحلة وتأثيراتها النفسية والإجتماعية والثقافية على ذات البطلة؟. ما نوعية العلاقة التي تشكلت بين الذات والمكان بين عالمي الوطن والغربة؟. وما هو موقفها من مسألة الهوية والإنتماء والأنا والآخر في سياق التفاعلات الداخلية والخارجية؟

ولكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بد من الإحالة على مَفهُومي الهوية والذات اللذين يتميزان بتداخل وتعالق معرفي كبير، فقد حصر الباحث "حاتم الورفلي" أهم الأبعاد التي يمكن النظر من خلالها إلى مفهوم الهوية/الذات على النحو الموالي:" الهوية جملة من العلاقات

والروابط العقلية (اجتماعية–اقتصادية–ثقافية) نسجها تطور تاريخي محدد في الزمان والمكان، قاصدة أبعاد ثلاثة هي: علاقة الذات بذاتها، وتنطوي على النرجسية يقابلها شعور بالدونية. وعلاقة الذات بالموضوع، بالعالم الطبيعي والإجتماعي، وعلاقة الأنا بالآخر وتنطوي على المحاكاة والإقتداء ... ويقابلها الإستقلال والذاتية "[1].

وبالتطرق إلى الكيفية التي يتم بها الإنتقال من "الذات الفردية" إلى "الذات الجماعية"، تشير بعض الدراسات السيكو–اجتماعية إلى مفهوم "التماهي" باعتباره الوسيلة الأساسية التي يبني من خلالها الفرد ذاته في شكل صَيرورة إدراكية بنيوية " من خلال التموقع السيكولوجي والسوسيولوجي في مسار تمتح فيه الذات معالم تشكلاتها، الرمزية والثقافية، المادية والمعنوية، الفردية والجماعية. من مبدأ تماهيها مع الآخرين الذين يُشَكِّلُون كتلة الجماعة ومُحتواها الإنساني، وبذلك ترتقي الذات من مُستوى الهوية الفردية المقترنة بتجليات "الأنا النرجسية" إلى مستوى الهوية الجماعية المنفتحة على أبعاد الإنتهاء الوجداني لكتلة رمزية حاضنة تتمثل في القبيلة أو الشعب أو الأمة "[2]. وبمفهوم المخالفة، يمكننا أن نطرح السؤال التالي: ماهو مصير هذه الذات إن لم تُحقق مِقدارا مُعينا من التماهي مع الذات الجماعية؟.

–أولا: أزمة الذات في وطن مأزوم:

يُقدم زمن الحكاية في رواية " الممنوعة " مرحلة حرجة من مراحل تطور الدولة الجزائرية، تميزت بتصاعد غير مسبوق لخطابات متضاربة كان لخطاب الهوية فيها القسط الوفير، وهو ما دفع بالجزائر إلى دوامة عنف، ألقت بظلالها على كل الأطياف الإجتماعية خاصة فئة المهمشين، يصف الطبيب " صالح " حالة الجزائر لـ " سلطانة مجاهد " فيقول:

" لا شيئ يبشر بالخير. اكتسى وجه الدزاير لون وجه اليتامى، متسخا وحزينا. يتزايد الملتحون بكثرة عجيبة، تتحول النساء إلى غربان ... إن باب الواد والقصبة هي بطون لا تكف عن الانتفاخ والاختمار. إن معرات القلق بادية على كل الوجوه. تحولت الدزاير إلى مستشفى مجانين ضخم، مهملة، بلا علاج، إلى العنف، اللغة الوحيدة المسيطرة "[3].

أدَّى تنافر المرجعيات التي تشكل الخلفية الفكرية والإديولوجية لكل جماعة إلى تضخم على مستوى الهويات، يحول دون الإستقرار على هوية واحدة منسجمة، تضم الجميع تحت راية القيم الإنسانية المتشبعة بروح الحرية والإنفتاح.

يَتَحَلَّلُ هذا التضارب على مستوى الهوية الوطنية، تهميش للفئات الأنثوية وهضم لأدنى حقوقها الثقافية والإجتماعية؛ إذ عمد الرجل عبر سلطته إلى تكريس مجموعة من الأنساق مُوسعا من دائرة فاعليتها السلبية، هذه الأنساق " حَوَّلت المرأة من فاعل إلى مفعول بل ضحية لسلطة سياسية أو دينية قاهرة، ونسق ثقافي ماضوي أحادي النظرة تجاه المرأة في الوسط الذكوري، الأمر الذي جعلها تعيش حالات من الخيبة واليأس، كما تعيش مرحلة طويلة من الصمت والتصميت والتهميش "[4].

ما أرغم بعض الأصوات النسوية على شحذ أقلامهن، وخوض معارك فكرية، غايتها تحرير الهوامش الاجتماعية بوَسَاطَة سردية رمزية تمثيلية " وهذا ما يحققه السرد بشكل أكثر فعالية، قياسا بالأنواع الأدبية الأخرى، من خلال المساحة التي يوفرها للشخصيات المضطهدة والمقهورة لتسترد حقها في التعبير عن أفكارها وتصوراتها، وتتغلب على الصور النمطية التي تشتغل كآليات لتكريس التهميش والدونية "[5]. فقد انتهج المجتمع الذكوري نوعًا من التربية الثقافية التقليدية، يفرض على الأنثى البقاء في دائرة الهامش بعيدا عن المركز، تقول " سلطانة مجاهد " ممتعضة من الأفكار المتداولة في المجتمع:

" لقد عَلَّمنا النساء دوما أن الشارع ليس مكانهن، عليهن فقط الاهتمام بداخل البيوت، ولكن ها نحن نرى عددا منهن، يواجهن يوميا، المنشفة في اليد، التعجرفات المتنوعة، وقاذورات الإدارات والمؤسسات والقوانين التي تشتمهن. الآن، لا تستفيد المرأة شيئا من شقائها، وتحملها للغطرسة الزوجية "[6].

وانطلاقا من هذا الواقع البئيس تدعو مثيلاتها من النساء إلى التضامن لاستعادة الكرامة المسلوبة وإعلاء كلمتهن والرفع من شأنهن في مجتمع يعاني اختلالا في المنظومة القيمية، تقول في هذا الصدد:

" ما أكبر الحزن حينما تُدرك المرأة بأن حياتها لم تكن إلا رِقًّا وإهانات، في عجز متواصل! في هذه الحالة، كيف نحافظ على تقاليد لا يحترمها أحد؟ كيف نُعَلِّمُ نمط حياة لا يعترف لنا بأدنى احترام، في أي وقت من حياتنا؟ يجب أن نتحدث. يجب أن نتضامن. يد وحدة ما تصفق. ولا يمكن أن نتحمل أكثر من هذا! لقد تعبنا "[7].

وهو ما دفع بالبطلة "سلطانة" إلى إعلان تذمرها من البيئة الثقافية التي نشأت فيها، في ظل إكراهات الهوية المتناقضة؛ إذ يتم حرمان فئات معينة "النساء" من ممارسة حقهن في الثقافة، من طرف فئات أخرى "الإسلاميون" باسم سلطة الدين، مع إباحتها لأنفسهم إن سمحت لهم الفرصة، ولذلك عندما سألها صديقها الفرنسي عن كتاب حُوِّل إلى فيلم، أجابته بامتعاض قائلة:

" أين تحسب نفسك؟ أنا، لا أملك حق الذهاب إلى السينيما. وفي التلفزة، لا نشاهد إلا مسلسلات دالاس، أفلام الحرب والمشادات الجسدية وأفلام مصرية أحيانا مع سامية جمال، نحن في الصحراء لا نملك البارابول ... الإسلاميون يُسمونها (قنوات إبليس) ولكنهم يفرحون كثيرا حينما يمتلكونها. هذه المنطقة بعيدة، وقنوات الحكومة لا تصلها "[8].

قياسًا على المقطع السَّابق يمكن القول بأن الأنثى تعيش (آنذاك) وفق استراتيجية تقوم على سلسلة انقطاعات (اجتماعية، معرفية، ثقافية) قائمة على حَجْز مكاني، تتقلص فيه كل تحركاتها وآمالها وأهدافها، تفضي عبر تراتبية مُثقلة بإكراهات الأمر والنهي، إلى كبت نفسي مُتعدد الأبعاد، يضاعف من احتمالية الإصابة بانفصام الذات وتمزقها.

يُبقي اللاَّإنسجامُ الذاتَ رهينةً لميولاتها الداخلية، " فالسياق الإجتماعي الذي ينفي الآخر ويستعلي عليه، يدفع الشخصية لأن تلوذ بانتماءات كامنة في أعماقها "[9]. هذه الأخيرة تدعوها إلى تجاوز كل مُعطى ثقافي/اجتماعي ينتمي لحقل النمطية والتقاليد البالية والأحكام الدينية المتطرفة، واختراق الوعي الكائن إلى الوعي الممكن والمأمول الذي وضعته الذات نموذجا وصورة مثالية لهويتها؛ إذ " تتحقق هُوية الذات عبر تحولات تحكم الفرد في وُجوده البسيكولوجي وكذلك الإجتماعي حينما يعاين ذاته ليس على نحو نهائي وإنما تقص وبحث مستمر على استقلاليته عله يظفر ببعضها ... وجب لكل ذلك أن تعمل الذات على إيجاد مواطئ وقوف تملك من خلالها ملامح وجودها الواقعي والتخييلي لإبراز وحدتها وانسجامها إن كان ذلك مُتيسرا لها "[10]. وإن عجزت عن تحقيق حُلمها واقعيا، فإنها تبقى ترسم ذلك الوجود المثالي على مستوى تخييلي محض.

هنا، تتقابل الرغبة في الحياة والحرية من طرف الذات مع الإنكفاء على الهوية من طرف الجماعة، ما يضاعف من حجم الإنكسار الداخلي للذات التي تقع فريسة لقمع السلطة الذكورية الدينية، الناتجة عن تغيرات وتحولات سياسية ترزح تحتها الجماعة، جعلت بعض الفئات تمارس

سلطتها على حساب فئات أخرى عن طريق القراءة الإنتقائية وقصدية الإساءة للنصوص المرجعية الداعمة لأفكارها والمحركة لسلوكياتها.

–ثانيا: الهجرة/الخلاص من ثقل الثقافة :

يظل الفردُ مشدودا بحبل الإنتماء إلى جماعة ثقافية نشأ في كنفها لمدة معينة، ولكنه قد يرغب في قطع حبل التماهي معها ليحظى بفرصة استنبات ذاته في تربة أخرى غنية بمكونات ثقافية قادرة على زيادة إنتاجيته؛ ففي مجال السوسيولوجيا تفهم علاقة الفرد بحقل الإنتماء " بالصلة مع موروث تلقاه الفرد بفعل ولادته ومخالطته الإجتماعية ضمن جماعة إنسانية محددة. والموروث المتلقى هو جسدي ونفسي واجتماعي بصورة لا تنفصم، وهو مصوغ بترتيبات يستطيع الفرد أن يستعيد اكتسابها أو يتخلى عنها بيسر إلى حد ما، ولكن عبر مواجهة معها لتبنيها أو التحرر منها "[11]. مهما كان حجم الضرر الناتج عن هذه المواجهة مع الأصل والإرث الماضوي.

في هذه الرواية، أحدث نمط الإحتكار الثقافي (le monopole culturel) نوعا من القطيعة بين الذات وفضائها الثقافي، أرغمها على استبداله بفضاء ثقافي آخر أكثر رحابة واستقلالية، متخذة من الهجرة سبيلا لإنهاء الكابوس الثقافي؛ إذ " تقوم صيرورة السفر كنمط للوجود على التحرر من قواعد الإكراه، حيث لا تتماهى الذات مع أي وضع قائم ومهيمن، بل من انكفائها على هشاشتها، حيث تتحول هذه الهشاشة إلى قوة داخلية للإختيار الذاتي ولرفض الوضع القائم، بحيث لا ترى الذات أي إمكانية للمصالحة مع الواقع "[12]. تقول " سلطانة ":

" في تلك الفترة، كنت في حالة الذي يولد من جديد، وشعرت فجأة بجوع كبير للحياة ... شيئا فشيئا، أضحت تهديدات وممنوعات الجزائر تحدث في نفسي هلعا لا مثيل له. لذلك هربت من كل شيئ. هرب غير معقول حينما أحسست بزوغ كوابيس أخرى "[13].

وبعد فضِّ الشراكة مع الموطن الأصلي والرحيل إلى فرنسا، راحت البطلة تقارن نفسها بين الهنا/الوطن، والهناك/المنفى، لتختار دون أي تردد الفضاء الآخر الأجنبي، رغم افتقارها لصفة المحلي/المواطن، وبهذا تغدو مُمارسة الهوية الذاتية في فضاء يخلو من تعقيدات الهوية وإكراهاتها مطلبا فوق كل اعتبار، تقول في المقطع الموالي:

" ولكن تصور بأنه مهما كانت صفة " الأجنبية " غير مريحة أحيانا، فإنها بالمقابل حرية نفسية جدا. لا أبدلها بأي شيئ في العالم؟ أنا أيضا، لا أخفي شيئا أبدا. ولا تفعل الإشاعات والإنتقادات غالبا إلا إثارة الإبتهاج الذي يمنحه لي كل اختراق "[14].

من هذه الناحية، تتغلب –في اعتقاد " سلطانة مجاهد "– الحرية الثقافية على إجراءات التحديد المدني باعتبارها مواطنة غريبة، ولكن هذه الغرابة هي الدرع المتين الذي يحمي المهاجرة من هجمات التعيين الثقافي داخل الثقافة الأصل، مُساهمة في صقل سُلوكياتها مبرزة الوجه المتحضر لها بعيدا عن تعقيدات الحجز الثقافي (la réservation culturel) في المكان الأصلي، تقول عن نفسها:

" في وهران تعلمت الصراخ. كنت أغتاظ دائما كي أواجه الهجمات. ولكن غفلة المدن الكبرى قللت من غضبي، وجعلت ردات فعلي معتدلة. المنفى لينني. المنفى مجال غير قابل للحجز، مجال الإختلاف الصامد، نظرة لا وارث لها "[15].

وعلى هذا الأساس تفضل الذات الآخر الفرنسي المتشبع بقيم الإنفتاح والحوار، الآخر الذي يترك للذات الأولوية في تقرير شؤونها وحاجاتها النفسية والمادية دون إعارة الكثير من الإهتمام لرقابة التقاليد والموروثات، وهو الموضوع الذي طرقته " دليلة " في حوارها مع " سلطانة مجاهد "، حول الحرية في تسمية الأطفال بين المجتمعين الجزائري والفرنسي، تقول " دليلة " سائلة " سلطانة ":

" –هل يمكن لأب فرنسي أن يكون لديه ابن باسم محمد وطفلة باسم عائشة؟

–إذا أراد ذلك طبعا. أدخل جوابي سُرورا إلى نفسها. استعادت ابتسامتها.

–إنهم أحسن منا، الفرنسيون. عندنا، لا أحد سيقبل أن يسمي ابنه جان وبنته ماري... "[16].

يكمن الفارق بين الذات والآخر في كيفية إدارة جزئيات وتفاصيل العلاقة بين الذوات، وفي مساحة الحرية الممنوحة للذات لتحقيق رغباتها وتجسيدها على أرض الواقع في إطار التفاعل الإيجابي المزدوج الذي ينطلق من رغبات الفرد إلى رغبات الثقافة وليس العكس.

ولا تقتصر النظرة السلبية إلى الوطن/الجزائر على صنف المهمشين الجزائريين من فئة الإناث والمهاجرين فقط، بل تمتد إلى منظور الآخر/الفرنسي " فانسان " أستاذ الرياضيات بجامعة باريس، الذي جاء إلى مدينة " عين النخلة " الصحراوية مُحملا بتمثيلات نمطية عن الجزائر، ورغم أنه لا

يأخذها بعين الإعتبار والمبالغة، إلا أن مُعاينتها على أرض الواقع زاده يقينا منها، فعندما أراد أخذ حَمَّام ساخن بالفندق الذي يقطن فيه، وجد كل شيئ مُعطل، يقول:

" رفض قمع المرشة أن يطلق ماءه. قرقرت حنفية المغسل، تجشأت ولكنها لم تلفظ قطرة ماء. حذرني أصدقائي بأن الحنفيات هنا شحيحة ونزوية. تصورت تحذيراتهم مُبالغا فيها لأني أشك في كل الكليشيهات الفرنسية حول الجزائر. نزلت لأحاول أن أجد حلا. لا أحد. فقط ثلاثة مفاتيح تنقص من السبورة. اختفى الحارس الليلي "[17].

مُجملُ الصور السلبية عن موطن الذات تؤدي إلى تشكيل واقع مأساوي، تجري أحداثه على رقعة الصحراء مَشَاهدَ لفصول حكايةٍ تُطمس فيها هُوية الأنثى بصفة خاصة والإنسان بصفة عامة، يدفع بالذات إلى إعادة بناء ذاتها عبر استهداف بيئة مغايرة قادرة على احتضان أحلامها.

–ثالثا: العودة/محاولة ترميم الهوية:

بعد انقضاء الشطر الأول من مشروع " سلطانة مجاهد " بالهجرة والخلاص من ظلامية القيم والأطر الإجتماعية والثقافية المحاصرة للفتاة الجزائرية المثقفة، هاهي تعود بعد سبع سنوات كاملة في فرنسا لإنقاذ ما يمكن إنقاذه وتحرير الفكر الجماعي والفردي وتثوير الفئات المهمشة من خلال خبرتها في مجال الطب وتعرفها على حقيقة الإنسان في الدول المتقدمة، تقول عن سبب الرجوع إلى أرض الوطن:

" إن مجيئي هنا يسمح لي بالإمتلاء ثانية من آلامهم، من تأوهاتهم، من شكاويهم، من هاويات أحزانهم، من شموليتهم، ليسوا ملائكة بشكل مطلق ولكنهم ليسوا شياطين بشكل مطلق أيضا، بل عقلية محافظة ومتخلفة "[18].

لكن الأمل في تحقيق مشروع الطبيبة المثقفة يتضاءل بتزايد التفاعلات الاجتماعية داخل مُحيطها الجديد/القديم، فبالرغم من فعاليتها كطبيبة ومصلحة اجتماعية يتم تضييق مساحة تحركها من لدن رئيس البلدية وصديقه قائد جماعة الفيس الإسلامية، وصولا إلى الرغبة في التحكم بتفاصيل حياتها الشخصية؛ إذ تثير غيض هؤلاء وعداوتهم لقضائها الليلة مع صديقها الفرنسي " فانسان " ، وهو ما يوضحه المقطع الحواري الموالي:

"–تعبت؟ تعبت؟ تهلكين نفسك بيديك وتعملين على تأليب القرية ضدك؟ إلى أين تريدين أن تصلي؟

– القرية ضدي؟ هذا ليس جديدا علي؟ مع الفرق أني لست طفلة عاجزة. سأنتظر بفضول كيف ستتطور باقي العداوة. أنسيت بأن الذي أحيا من جديد هذه العدوانية هو قضاؤنا الليلة تحت سقف واحد ؟ "[19].

ولذلك ترى "سلطانة " أنه كان عليها أن لا تعود من المهجر إلى مثل هذه الأماكن الأصلية، لأنها توقظ بداخلها أزمة المصير المأساوي لها ولمثيلاتها الرازحات تحت سلطة الظلم والقهر، تقول:

" كان الأجدر بي أن لا أزور ثانية هذه الأماكن التي أصبحت تنتمي إلى الماضي، لأن الطفلة الصغيرة التي تعشش بذاكرتي هي دائما حاضرة هنا مع ظلال الأطفال الآخرين الذين يشاركونها المصير المأساوي. حولهم الألم إلى هامات، كبرت بدلهم وشوهتهم "[20].

يتضح أن إحساس المرأة المثقفة بالتغييب والإقصاء قد انعكس على إحساسها بالمكان، مما دفعها إلى إنكار المكان والنفور منه، لأنه أصبح مُقترنا في ذاكرتها باستدعاءات الألم والحزن. وبسبب فقدان المكان الأصلي فإن باقي الأماكن تبدوا ملاجئ مؤقتة في نظر البطلة تلقي بظلالها على نفسيتها فتفقد الألفة مع كل الأمكنة، وحتى مع ذاتها، تقول في هذا الصدد:

" لا أعرف.جزئيا، ربما بسبب الطفلة التي ماتت بداخلي. ربما أيضا بسبب الأراضي. الصحراء. وهران.باريس. مُونبولييه. تجزئة الأراضي وتجزئة المنظر الداخلي.إن الأراضي العزيزة عليك والتي تضطر إلى مغادرتها، تسكنك أبدا.بسبب تكرار الذهاب، تفقد الألفة مع نفسك، ترحل من ذاتك. لست إلا غريبا أينما حللت. تَوقُّفٌ مستحيل وأكثر من هذا رجوع مستحيل "[21].

لم يكن المشروع العكسي/العودة، بغية ترميم الذات النسوية المهمشة إلا ضربًا من الوهم سرعان ما تهاوت دعائمه، وتآكلت مُخلفة رماد الخيبة واندثار المحفزات على مواصلة الخطى ورسكلة الذهنيات والقيم الزائفة التي تحكمت بالوضع الثقافي لمدينة "عين النخلة"، تقول سلطانة:

" إذا كنت أشعر بنفسي ظلا بعيدا عنها، فهي ليست إلا شبحا مغبرا، في حدود جرح عيوني، حينما أكون هنا. نعتقد بأننا عدنا، ولكن الأجنبية التي بداخلنا هي التي تكتشف وتندهش. لا نجد أنفسنا فيما تراه. إن كلمات هؤلاء الرجال وآفات القرية تدمر المنظر. سأرى كل هذا انطلاقا من مونبولييه، انطلاقا من واحدة أخرى، أكثر بعدا، وأكثر تنبيها "[22].

تَغلَّبتْ قساوةُ الواقع على جَمالية الحلم، والرغبة في خدمة المصالح الضيقة على خدمة الوطن، ولغة العنف على لغة الحوار، وتعالت تهديدات السياسي والأصولي على أفكار المثقف، وتآلف الفضاء البعيد وتنافر القريب، كلها عوامل دفعت بالطبيبة " سلطانة " إلى اختيار قرار العودة لفرنسا ومواصلة الترحال بصيغتيه الداخلية والخارجية.

-رابعا: ارتباك الذات وتمزقها:

ينبغي أن نؤكد في هذا الإطار على أن المقصود بارتباك الذات وتمزقها " انهيار الخارطة الإدراكية، وانهيار فهم الفرد للعالم المحيط به، وانهيار توافقاته مع ذلك العالم، ويأتي ذلك من وجود الإنسان في بيئة لا تتجاوب أجزاؤها كما يتوقعها الفرد أن تتجاوب، وبذلك يفقد قدرته على التفاعل مع تلك البيئة، وعلى توقع ما سيحدث له، وعلى التوافق والحفاظ على "صحته" البيولوجية والنفسية والإجتماعية "[23].

تقع " سلطانة مجاهد " فريسة لتمزقات الكينونة والوجود منذ نعومة أظافرها، فقد نشأت يتيمة بعد وفاة أختها ووالدتها ثم اختفاء والدها، وتربيتها في منزل طبيب فرنسي يعمل بقرية " عين النخلة " عكف على تعليمها، ومع تفاقم الوضع الأمني والسياسي أرسلها للدراسة في وهران، ثم هاجرت إلى فرنسا استكمالا لدراسة الطب وهربا من تحجر التقاليد الثقافية، تُلخِّصُ وضعيتها الوجودية فتقول:

" هذا الرفض الكُلي الذي يسحقك ويرميك خارج كل شيئ. المنفى الأول خارج الطفولة، ولا يترك لك إلا لذة جرح الصفاء. بعد ذلك، تصقلك الشكوك والعزلة ولا تصبحين إلا رغبة بلا جاذبية ممكنة، موضوعة في ذاكرة حول المخاوف المتعددة. هروب أبدي "[24].

تنتقل الذات في الفضاء من الهُنا/الجزائر إلى الهُناك/فرنسا تَمَلُّصًا من الضغط والتسلط المفروض عليها من طرف الذات الجماعية؛ " إنها تجربة الإنتماء القلق الذي يُمازجه الرفض، تجربة تكتسب بها الإنسانية خُصوبة مصدرها القلق الخلاق، ذلك الذي بموجبه يكون عدم الإنتماء رفضا لما كان حَجْبًا للإنسان في حقيقته، فالمنفى سردية تصر على أن تكون نحوا من الوجود الموجبِ على صُعوبته "[25].

ولكنها تقع في مأزق آخر يتمثل عدم وجود مجال انتمائي ثابت يكون ملاذا آمنا لها، يقف دون تعرضها لتصدعات الكينونة؛ فلا هي راضية بأصلها الوجودي، ولا هي مقتنعة تمام

الإقتناع بوجودها البديل، ما يضعها في مفترق الوجود، في متاهات اللاإنتماء، تقول " سلطانة " شارحة وضعها الوجودي:

" مع تقدم العمر والمنفى، تضخم وضعي وتفاقم. الآن في فرنسا، لست لا جزائرية، ولا حتى مغاربية. ما أنا إلى عربية... إن كلمة عربي تذيبك في رتابة سديمية. هنا لم أعد لا جزائرية ولا فرنسية. أحمل قناعا. قناعا غربيا؟ قناع مغتربة؟ "[26]

ترزح " سلطانة مجاهد " تحث ثقل الأصل ووهم البديل، فأصلها الجزائري يحول دون اكتسابها صفة المواطنة الفرنسية المتمتعة بكل حقوقها، وما فقدته في الجزائر تحت ضغط الثقافة التقليدية، تفقده في فرنسا بدعوى القانون، ما أدى بوضعيتها النفسية الوجودية إلى التفاقم والتأزم بمرور الزمن. لتبقى معلقة بين عالمين يتجاذبان خيوط هويتها، تقول:

" الأرجح أنني بين الإثنين، على خط الكسر، داخل كل القطائع. بين التواضع والإزدراء اللذين يسحقان تمرداتي. بين ضغط الرفض والتشتت اللذين تمدهما الحريات. بين اغتراب الحصر والهروب عن طريق الحلم والخيال. داخل منزلة بين المنزلتين، تبحث عن اتصال بين الجنوب والشمال، عن معالمها داخل ثقافتين "[27].

يؤدي انتفاء الحصن الوجودي المتمثل في الهوية الثابتة، إلى خلخلة وجدانية تضع الذات خارج كل تموضع يعيد إليها ذلك الإستقرار المنشود، " ما يجعل من كل فرد حاملا ثقل هويته ومترحلا من فضاء إلى آخر يصارع من أجل الوجود والإعتراف بكل الأشكال الرمزية المتاحة التي تشكل الهوية ذاتها "[28].

في ذات الإطار، يُرجعُ أستاذ الرياضيات الفرنسي " فانسان " مسألة فشل الأجانب في معركة تحقيق الإندماج إلى عدم نجاعة التربية الثقافية والإجتماعية لبلد الإستضافة، مُشبها اندماج الأجنبي في المجتمع بعملية التطعيم لمرضى الكلى، فكما تُسهِّلُ الأدوية عملية اندماج العضو الدخيل، تُسَهِّلُ التربية الإجتماعية اندماج المهاجر، يقول:

" إن التطعيم مثله مثل أي عملية اندماج لأي أجنبي. عمل القبول المتبادل ضروري لإنجاح الإندماج: على الأدوية الصيدلانية أن تمارس عملها الكيماوي على جسد المرضى، في مثل حالتي، وعلى الأدوية التربوية أن تمارس عملها في الجسد الإجتماعي في حالة الأجنبي "[29].

كما يُؤدي شرط القبول المتبادل بين العضو/الغريب والجسد/المجتمع إلى زيادة فرص الإندماج والإستزراع من جديد دون عوائق وحساسيات بين الطرفين، خاصة في الدول التي تعاني من عُصاب الهوية وفُوبيا الإختلاف.بالإضافة لذلك، " ينبغي له، { الفرد الغريب } حتى يتكيف مع استراتيجيات الهوية، أن يلعب اللعبة المعقدة من إعادة الإنتاج والإبتكار، من الترميم وإعادة البناء، من الأمانة والخيانة، من الذكرى والنسيان "[30]. فمسألة الإنسجام إذن، تتجلى بصورة تمفصلية، داخلية وخارجية، فردية وجماعية، تقوم على أسس تشاركية متبادلة.

–خامسا: تجاوز الهويات/هُويات بديلة:

تُفصح " سلطانة " لزميلها الطبيب " صالح " عن مُعضلتها الوجودية وصراعها الدؤوب لإعادة التمركز في منطقة بينية بين الهويات، تأخذ من الأصل ولا ترفض البديل، تتحرر من وَهْم الهوية الماضوية ولا تنساق خلف أوهام التحرر، تنصهر داخل الجماعة بدون أن تفقد مكوناتها الداخلية، تكون بمثابة فُسَيفسَاء هُووية (Mosaïque identitaire)، هذا ما يرد في الحوار الموالي:

" تتحدثين مثل كتاب. تحاضرين؟ أترين بأنك امرأة إفراط: الصمت أو الإسهاب الطويل. لقد أعداك الغربيون بالثرثرة والتعالم.

–لدي أمتار وأمتار، جاهزة، من هذه الإسهابات. أتعرف بأن فكرة المنزلة بين المنزلتين تغلي في رأسي باستمرار "[31].

بعد أن كانت وجهة المهاجرة الطبيبة " سلطانة " محددة في المرات السابقة، سواء من " الهنا/الجزائر " إلى " الهناك/فرنسا " أو العكس، باتت في ظروف التمزق الداخلي هجرة غير معلومة، هجرة من المجهول إلى المجهول، شُرود في تضاعيف الوجود، تقول:

" الذهاب مرة أخرى؟ مغادرة فرنسا والجزائر معا؟ نقل الذاكرة المضخمة من قبل المنفى إلى مكان آخر؟ مُحاولة العثور على مَكان بلا جذور، بلا عنصرية، بلا معاداة للأجانب، بلا مُغامرات وخيمة العواقب؟ إن هذه المنطقة الإستشباحية لا توجد دون شك إلا في آمال المثاليين. بعد أن نرحل المرة الأولى، تصبح كل الإقامات الأخرى ملاجئ مؤقتة. المكان الآخر ليس علاجا أبدا "[32].

إن الإنتقال والخروج والتنقل من المكان عبارة عن " انزياح نفسي وتخيلي، وإعادة تشكيل لأواصر الإنتماء إلى العالم الإنساني جُملة، وليس مجرد مغادرة حسية لمنطقة بعينها. ففقدان المكان الأصلي، والتغرب عنه، نهاية لفكرة " التماهي مع الأصل " بحد ذاتها، وبداية لتجاوز حدود الجغرافيا واللغة والدين والطبقة والوطن "[33].

انطلاقا من فكرتها المحورية حول تداخل الهويات وانصهارها، ترى " سلطانة " بأنه لا وُجود لمفاهيم النقاء العرقي التي دأبت الدراسات الأنتروبولوجية وعلوم الإناسة على ترسيخها في العقل البشري، وتقسيم العالم على إثرها خدمة لأغراض استعمارية إديولوجية، مؤكدة على وحدة الطبيعة البشرية، من خلال الحديث عن أصلها وأصل صديقها ياسين، تقول في هذا الشأن:

" تقول بأن أجدادنا زُنوج جاءوا من الجهة الأخرى من الصحراء. أما ياسين، فيقول بأن جُدوده ربما كانوا من اليهود، وأن كثيرا من القبائل هم هكذا.هل تظنين بأن هناك من هو حقا ابن أصل حقيقي؟. أظن بأن الحقيقة الوحيدة الموجودة هي الإختلاط. أما الباقي، فليس إلا نفاقا أو جهلا "[34].

على إثر ذلك، تنتقد " سلطانة " هشاشة الفكر الهووي ذي الصبغة الإقصائية القائمة على تَرسيم الحدود، وتعطيل مساعي الوحدة العالمية، وهي تتقاطع بذلك مع حركات عالمية داعية لفكر هووي تجاوزي هجين،" ففكر الهجنة إنما هو ضرب من ضروب المجاوزة للإنغلاق الذي ينهض عليه الفكر الهووي، نتاجا لحركات تثاقف إنساني ونمط من الفضاء الحر، عنوانه التأسيس لهوية عالمية تقوم على التنوع "[35]. بدلا من التقوقع والتمترس بهوية أحادية والتعصب لها.

يَشِي الإصرار الدائم والبحث الدؤوب من طرف "سلطانة مجاهد" عن هوية مرَكبة وهجينة بنبوءة ثقافية – إن جاز التعبير– حالمة ومؤمنة بأنه بالإمكان أن " يفتح هذا التهجين أفقا لنشوء ثقافة مُركبة قد تؤدي بدورها إلى نشوء ثقافة إنسانية مركبة هي أيضا، تقوم على جذور عديدة ومتنوعة، بحيث يشعر كل إنسان أنه نفسه وغيره في آن، أو يشعر أنه لن يكون نفسه حقا إلا إذا كان غيره حقا. وفي هذا يكمن أمل كبير بنشوء إنسانية أخرى وفهم آخر لمعنى الإنسان "[36].

تتشارك الذات/المرأة الجزائرية، مع الآخر/الفرنسي، على مستوى رؤية العالم (vision du monde)، في نفي أوهام الحدود العرقية بين الأجناس والهويات، الذي أقر بذلك عندما سئل عن هوية المانخة (متبرعة بكلية) فأجاب قائلا:

" –إنها لامرأة، لجزائرية. –لجزائرية؟!

–نعم، من أصل جزائري. لا أعرف شيئا آخر عنها. يا له من انفعال أن تعرف بأن لك نفس هوية نسيجية لامرأة، زيادة إلى أنها امرأة من جنس آخر وثقافة أخرى! إن الذين يطلقون أكاذيب حول الأجناس، عليهم أن يلقوا نظرة على علم الوراثة! "[37].

ولعل ما يعزز أكثر فرضية بحث " سلطانة مجاهد " عن هوية ثالثة مُتعالية، هو عدم قدرتها على الإختيار بين الرجلين اللذين تجاذبا حُبها، " صالح " الطبيب الجزائري، وأستاذ الرياضيات في جامعة باريس الفرنسي " فانسان "، تاركة نفسها في دوامة الرحيل والبحث، تقول في هذا الصدد:

" كيف أفهمهُمَا حيرتي المرعبة من الإختيار، من التوقف؟ كيف أسمعهما بأن حياتي ليست إلا في التنقل، في الهجرة؟...جِدُّ منشغلة بالتهام اللحظة الحاضرة كي أفكر في التقسيم وفي المستقبل. إن عودتي هنا خدمتني في هذا على الأقل، في تحطيم آخر أوهام التجذير. كيف أقنعهما بهذا، في الوقت الذي قضيت أنا سبع سنوات لأقتنع به؟ "[38].

منح التنقل بين الهويات لـ " سلطانة " الموقع المثالي لمعاينة مساوئ الأنا والآخر والحق في تقرير مصيرها الوجودي تجاوزا لهما، بميثالية الأنثى المثقفة الحالمة بالعثور على هوية إنسانية عالمية تسير بمنطق الإحتكام إلى قيم الإنسان والعدل والحرية والإنسجام.

وبهذا تقطع الذات أشواطا من الإنزياح عبر مُغامرة وجودية غير واضحة المعالم، تنطلق من عالم داخلي مظلم مليئ بالخيبات، إلى واقع اجتماعي هش مجبول على قيم التهميش والإحتكار، وصولا إلى فضاء ثقافي أكثر رحابة وتقبلا ، ورغم كل هذه الترحلات لم تجنِ الذات المقهورة سوى التأزم والإنكسار، ما حذا بها إلى الرغبة في استحداث عالم مثالي بعيد عن إكراهات الجذور وادعاءات القبول ومضاعفات الرفض.

خاتمة:

–تمظهرت أزمة الذات والوجود في رواية " الممنوعة " من خلال عدة صور ومعطيات، أبرزها: غياب مظاهر المشاركة الإجتماعية والثقافية بين بطلة الرواية " سلطانة مجاهد " وفضائها الثقافي، علاقة التنافر بينها وبين المكان الأصلي واعتباره مُستودعا للذكريات الحزينة، التملص الدائم والهجرة المتوالية إلى خارج الوطن، طغيان لغة السخرية والإزدراء والقلق عند الحديث عن ثقافة الداخل.

-يؤدي اختلاف المعيار الثقافي بين الذوات إلى اختلاف أحكام القيمة المتعلقة بتقويم السلوك الإنساني، ولو كان ذلك داخل الثقافة الواحدة، ما يفرض على الذوات تفعيل آليات التقبل داخل الإختلاف، بغض النظر عن استحداث نموذج كوني عالمي يسع التقاطبات الثقافية على اختلافها.

-تَعمدُ الذات إلى إحداث قطيعة مع الفضاء الثقافي نتيجة لتقلص فرص انسجامها معه، مُتخذة في نفس الوقت من فضاء الغربة مجالا انتمائيا جديدا وتجاوزا منطقيا للهوية التراثية الموغلة في الإقصاء والكبح الفكري والثقافي، مما يتيح لها إمكانية التحرك بحرية وبفعالية وكفاءة في إطار تشاركي فَعَّال يعترف بالإنتاجية وليس بالجنس والنوع.

-تتطلب سياسات الإندماج شُروطا تفاعلية، لا تتعلق فقط بامتلاك الذات لمختلف الآليات النفسية، الإجتماعية، الثقافية، المساعدة على ولوج سياقات الهوية البديلة، بل تتعلق كذلك بحجم التنازلات بين الضَّيف والمضِيف، ونوعا من التربية الثقافية والإجتماعية المفتقدة في كثير من بلدان الضيافة.

-تأرجحت الذات بين ضفتي الإنتماء للأصل ووهم البديل، ومع رفض التماهي بالأصول وحساسية التشبث بالمجال الإنتمائي المؤقت، وقعت الذات فريسة لانتكاسات وجودية حادة، خلخلت كيانها الداخلي، وأسهمت في رفضها لكلا الهويتين وبحثها عن هُوية إنسانية عالمية لا تعترف بمفاهيم النقاء الجنسي والعرقي ولا بالحدود الوهمية بين الهويات.

-تتشارك الذات العربية/الجزائرية مع الآخر الغربي/الفرنسي في رحلة البحث عن هوية إنسانية جامعة بعيدة عن الصراعات الإديولوجية وأوهام الهويات المغلقة، ففي الوقت الذي تهاجر الطبيبة الجزائية هربا من شبح الهوية المتناقضة وثقل الموروث الثقافي للبيئة الصحراوية الجزائرية، يأتي الآخر الفرنسي في هجرة معاكسة إلى الجزائر بحثا عن الفتاة المهاجرة التي منحته كليتها وأصبحت جزءا من هويته النسيجية، راغبا في محو حدود الهويات بين الأجناس والأعراق. فكل منهما يأمل في العثور على هوية بينية تشاركية تقوم على القيم الإنسانية المثالية.

هوامش:

[1]- حاتم الورفلي: بول ريكور...الهوية والسرد، (د.ط)، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 31.

[2]- أراق سعيد: مدارات المنفتح والمنغلق في التشكلات الدلالية والتاريخية لمفهوم الهوية، مجلة عالم الفكر، العدد4، المجلد36، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أبريل/يونيو 2008، ص 228.

[3]- مليكة مقدم، الممنوعة، تر: محمد ساري، ط1، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2008، ص 142.

[4]- نورة بعيو: الإتجاه ما بعد كولونيالي والأدب النسوي: قراءة أنساقية في نماذج رواية جزائرية، ضمن كتاب: العين الثالثة، تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي، إعداد: حياة أم السعد، ط1، دار ميم للنشر، الجزائر، 2018، ص 55.

[5]- إدريس الخضراوي: سرديات الأمة (تخييل التاريخ وثقافة الذاكرة في الرواية المغربية المعاصرة)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017، ص 250.

[6]- الرواية، ص 177.

[7]- الرواية، ص 178.

[8]- الرواية، ص 73-74.

[9]- ماجدة حمود: إشكالية الأنا والآخر، نماذج روائية عربية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2013، ص 89.

[10]- حاتم الورفلي: بول ريكور...الهوية والسرد، ص 34.

[11]- هوغ لاغرانج: نكران الثقافات، تر: سليمان رياشي، ط1، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، لبنان، 2016، ص 359.

[12]- محمد بوعزة: سرديات ثقافية-من سياسات الهوية إلى سياسات الإختلاف، ط1، منشورات الإختلاف، الجزائر، 2014، ص 101.

[13]- الرواية، ص 47.

[14]- الرواية، ص 140.

[15]- الرواية، ص 14.

[16]- الرواية، ص 100.

[17]- الرواية، ص 67.

[18]- الرواية، ص 165.

[19]- الرواية، ص 138.

[20]- الرواية، ص 23-24.

[21]- الرواية، ص 109.

[22]- الرواية، ص 172.

[23]- الشريف كنعانة: دراسات في الثقافة والتراث والهوية، تح: مصلح كنعانة، (د.ط)، مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديموقراطية، رام الله، فلسطين، 2011، ص 395.

[24]- الرواية، ص 184.

[25]- عمر بوجليدة: فكر الهجنة والوعي بالآخر، السرديات العنصرية والمثقف المقاوم، ضمن كتاب: إدوارد سعيد، الهجنة، السرد، والثقافة، إسماعيل مهنانة وآخرون، (د.ط)، منشورات القرن 21، الجزائر، 2016، ص 86.

[26]- الرواية، ص 139.

[27]- الرواية، ص 47.

[28]- حاتم الورفلي: بول ريكور...الهوية والسرد، ص 34.

[29]- الرواية، ص 147.

[30]- جويل كاندو: الذاكرة والهوية، تر: وجيه أسعد، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 2009، ص 135.

[31]- الرواية، ص 47-48.

[32]- الرواية، ص 84.

[33]- شرف الدين ماجدولين: الفتنة والآخر-أنساق الغيرية في السرد العربي، ط1، دار الأمان، الرباط، المغرب، 2012، ص 187.

[34]- الرواية، ص 97.

[35]- عمر بوجليدة: فكر الهجنة والوعي بالآخر، ص 98.

[36]- أدونيس: موسيقى الحوت الأزرق، (الهوية، الكتابة، العنف)، ط1، دار الآداب، بيروت، 2002، ص 293.

[37]- الرواية، ص 113.

[38]- الرواية، ص 171.